

السهم الرابع

للكاتب الروسى أنطون تشيكوف
بسم السيد جورج سلسيتي

الطالع فبرج في النصيب،
ولم يكن ليعتبر هذا
النوع من الأمل إلا
ضرباً من الوهم الباطل،
وهو لو كان في ساعة
غير هذه الساعة لما
أغار قائمة السحب
اهتمامه قط . أما وقد

كان في فترة فراغ ، وكانت الصحيفة بين يديه ،
فلا بأس إن هو راجعها ؛ ومن يدري ؟ فقد
يسهر الدهر مرة في العمر عن الزرابة به ، وقد
يسم القدر بسمة واحدة في الحياة ، وقد يكون
هذه المرة من أولى الحظ ، فليزِ إذن ولتتبع عيناه
جدول الأرقام من أعلاه إلى أسفله واضماً سبابه
تحت كل رقم حتى لا يفوته التدقيق
يا للسعد !

لقد برز الرقم ٩٤٩٩ في السطر الثاني من
الجدول ، ولقد خيل إليه أن أرقامه ترقص أمام
ناظريه ساحرة من ارتياحه وشكّه ، هازئة به
وبضعف يقينه وثقته ؛ فأخذته النشوة واستحوز
عليه السرور ؛ ولقد ترك الجريدة تسقط من يديه
على ركبتيه دون أن يتحقق صحة ماقرأ ، ودون أن
يدقق فيما إذا كان الرقم الذي ذكرته له زوجه مغلوطاً
فيه ؛ فقد أحس بطراوة منعشة تلج لها صدره ،
وبنشوة مثيرة عذبة انتشى لها وطرب
وتتمت شفتاه بصوت خفيض :

— ماشا ! الرقم ٩٤٩٩ مدرج في الأرقام

لم يكن (إيشان ديمتريش) ميسوراً في حياته
ولا معسوراً ، ولا كان ربّ ثراء يعيش منه في
نعيم ، ولا أخافقه يشكو العوز والفقر ؛ وإنما
كان يحيا حياة رضية هائلة براتب سنوي قدره
ألف ومائتا روبل . ولم يكن طموحاً بعيد الأحلام
بل كان قائماً بحظه من دنياه راضياً بقسمته منها
ولقد كان جالساً بعد العشاء على الأريكة يتصفح
جريدته ويطالع أنباءها عند ما قالت له زوجته وهي
ترفع السباط عن المائدة :

— لقد فاتني أن أقرأ الجريدة اليوم ، فانظر
يا إيشان فلعل الأرقام الراجعة منشورة بها فأجابه :
— إنها منشورة ، ولكن ألم يذهب عن بالك
أن تدفع بدل الضمان يا ماشا قبل ميعاد السحب ؟
ثم انظري ، ألم تفقديه ؟

— لا لم أفقده ، ولقد سددت قيمة الضمان
يوم الثلاثاء المنصرم

— مارقم السهم الذي تحملين ؟

— رقم السباق ٩٤٩٩ ورقم السهم ٢٦

— حسن ، سنرى ، ٩٤٩٩ و ٢٦

لم يكن إيشان يعتقد أن الرء قد يؤاياه حسن

الراجعة

— دقيقة واحدة فقط ، أسمحين ؟ إن لدينا من الوقت متسعاً نبتلى فيه بالاخفاق ، ونجابه الحقيقة المرة إن كنا مخدوعين ، فلم لا ننعم بهذه اللذة الساحمة ؟ وصمت لحظة ثم استطرد : وقد تكون أبدية ، فمن يدرى ؟

إن الرقم في أعلى الجدول وفي السطر الثاني بقيمة الريح إذن خمسة وسبعون ألفاً من الروبلات وليس هذا بالبلغ القليل ، أجل إنه ثروة :

وأنق على الجريدة نظرة فاحصة كأنما شاء أن يعلم إن كان الرقم ٢٦ موجوداً فيها أم غير موجود ، إلا أنه لم يلبث أن استرجعها دون أن يحلو حقيقة الأمر ، فلقد عثر عليه أن يفقد هذه اللذة التي لم يشعر في حياته بمثلهما . وما هي إلا لحظة حتى تابع القول :

هيه يا ماشا ، اصني إلى . أية سعادة تلك التي ستفمرنا بفيضها الساحر إن كنا قد ربحنا حقاً ؟ فضحكت وضحك معها ثم راحا معاً يتأملان طويلاً في صمت وهدهوء . فاحتمل اقبال السعادة عليهما بوجهها المتألق الضاحي بلبلهما وألقاهما في قلق واضطراب ، فذهلا عن نفسيهما واستسلما للخيال المتع حتى لم تعد الدنيا لديهما إلا صفحة بيضاء خط عليها بأحرف بارزة كبيرة العددان ٩٤٩٩ و ٧٥٠٠٠

ونهض إيفان من جلسته وجريده في يده وراح يتخطر بقامته المشوقة وقد بدت على بحياه دلائل التفكير العميق ولم يلبث أن وقف وقال :

وحدثت زوجه في بحياه ، فأدركت من أثار الدهشة والذهول البادية عليه أنه جاد في قوله ، فسرت الدهشة إليها أيضاً وعراها هي الأخرى الذهول ، فسألته وقد امتقع لونها وتركت السباط الطوى يسقط على المائدة :

— ال ٩٤٩٩ ؟

— نعم يا ماشا ، ال ٩٤٩٩

ورقم السهم أيضاً يا إيفان ؟

وكأنما كان إيفان في غيبوبة فأفاق ، وتذكر أن ٩٤٩٩ لم يكن ال رقم السباق وأن عليه أن يرى رقم السهم كذلك ، فتمتم : — آه ! نعم علينا أن نرى رقم السهم أيضاً فلتراجع الجدول إذن ، ولكن... لحظة من فضلك يا ماشا ، حسبنا لذة الآن وجود رقم السباق في جدول الريح ، أفهمين ؟ : قال ذلك وهو ينظر إلى قرينته ، وقد تجلت على ثغره بسمه عريضة بلهاء كأنه طفل غرير أراه أحد الناس شيئاً يبهز النظر

وبسمت امرأته كذلك ، فلقد كان الأمر لها كما كان له لذيذاً عذبا ، وإن كانت لم تتيقن بعد من معرفة رقم السهم المحدود

وهزتها الأحلام وهدهدتها الأمانى ، أحلام وأمان ممكنة التحقيق ، فيا للذة المسكرة :

وقال إيفان بعد صمت طويل :

— لقد ظهر رقم السباق فمن المحتمل إذن أن نكون قد ربحنا . إنه محض احتمال ، إلا أنه مستحب وكأنما عيل صبر زوجته اللجوج فقالت له : — حسن : لقد آن لك أن تنظر الآن ؟

صحا الجو واعتل النسيم ، وعلى مقربة منه ولداه
الصغيران يلعبان معاً على الرمال وبحفران فيها حفراً
صغيرة يملأها بالماء ، أو يلهوان في أرجاء الحديقة
الفيحاء ويلتقطان منها بعض الحشرات من بين
الحشائش المخضلة الندية

على هذه الصور الفاتنة غفا إيثان على مهل غير
آبه لشيء ولا عابئ بأحد ، وقد شعر من صميم
فؤاده بلذة ما بعدها لذة ، وأحس أنه يستطيع أن يفعل
ما يحلوه ويطيب ، فهو إذن لن يذهب إلى مكتبه
لاغداً ولا بعد غد ، ويرى ليصد عنه الناس إذا أخذ
بمقاعد أجفانه أن يتمهد أصص الورود والرياحين ،
أو أن يتجول في قلب الغابة اللقاء يفتش في حناياها
عن الذي يحب ، أو أن يقف على ضفة النهر ينعم
بمراى البؤساء وهم يتصيدون الأسماك

هذا في الصباح ؛ أما في المساء ، عند ما تلم
الشمس ذوائبها النورانية من حواشي الأفق
فلا أشهى لديه من الاستحمام في النهر ، وإنه ليرى
نفسه وقد دلف إليه متأبطاً منشفته فما يكاد يصل
حتى ينزع ثيابه عنه بتودة وبطء ، ثم يدغدغ صدره
العاري بكتا يديه ما يشاء له أن يفعل . وبعدئذ ياقى
بنفسه في الماء حيث ترخ الأسماك الصغيرة وتهتز ،
وحيث تتموج الحشائش المائية وتمايل مع هبات
النسيم الرخى ، فيستجم ساعة أو بعض ساعة متنعماً
وحده دون الناس أجمعين ، ثم لا يرى بداً من أن
يستجم قليلاً وأن يتناول أثناء فترة استراحته شيئاً
من الزبدة مع الشاي والكمك ، وما إن ينتهي من

— أجل ياماشا ، أي سرور سيفمرنا إن
كننا قد ربحنا حقاً ، وأية حياة جديدة تلك التي
سنحياها ، وأي انقلاب سيتناول شؤوننا كافة ؟
إن السهم لك وحدك لا ينازعك فيه منازع ولكن
حبذا لو كان لي ؟ إذا لكنت اشتريت قبل كل شيء
عقاراً بخمسة وعشرين ألفاً ، ولبذلت عشرة آلاف
لشراء أثاث جديد لمزنا ، ولوفاء ما على من دين
قليل ، وللسياحة في بلاد الله الواسعة ؛ وأما
الأربعون ألفاً الباقية فأضعها في المصرف

فأجابته امرأته وقد جلست ويداها على ركبتيها :
— أحسنت يازوجي العزيز ، فالعقار لا بد من
شرائه ، على أن يكون في أنحاء (ثولا) أو في
أرباض (الأورول) فنحن لا نملك منزلاً تقضى فيه
فصل الصيف القائط ، والعقار عدا ذلك ستدر علينا
أرضه الخيرات

وتراكت في مخيلته اللوحات والصور ، وكل
واحدة أفن من الأخرى وأعلق بالقلب ، وتخيل
نفسه فيها جميعاً يأكل من الأطعمة أشهاها
وأهناها ؛ ويعيش على هواه أرغد عيش وأترفه ،
مغافى الجسم ، قوي البنية ، مرتاح الضمير ، قرر
البال

وتخيل نفسه وقد أخذته الحر الشديد ، غير أنه
ماشكا ولا تبرم ، فالمرطبات أمامه والمبردات المنعشة
رهن إشارته ، وهو إذ تناول منها ما شاء يرى
أن يستاق على ظهره على الرمل المنشور فوق ضفة
الجدول الرقراق أو في الحديقة الوارفة الفيانة ، وقد

واستولى عليه النعاس غطى وجهه بجريدته واستسلم
إلى الكرى الهادى. المطمئن بعد أن يكون قد جاء
من فك له أزرار صدرته وخلع نعليه

وهكذا مضى إيفان فى تصوراتيه ، وانتقل به
خياله من الخريف الحزين إلى الشتاء المتعجب الباكى
فإذا به يرى السماء ممطرة أبداً لا ينقطع لها معين ،
ولا ينضب لها ميزاب ، والأشجار معراة من كساها
الحالية النظرة ترتعش أمام صفعات الرياح القرة الباردة ،
والدواجن فى المزرعة قد لجأت إلى أوكافها من رذاذ
المطر المنهمر خائفة حزينه ، والناس قد أووا إلى
منازلهم فلا متزهر يؤم ولا حديقة تقصد ، ويرى نفسه
هو قد اضطرت له الطبيعة الغضبية أن يبقى فى المنزل
كسواه ، فيذرع الفرفة بخطواته المترنة ذهاباً وإياباً
طول النهار ، وأن يتطلع بين الفينة والأخرى بقلق
وصجر لا حد لها خلال النوافذ الزجاجية التى خددها
المطر إلى حين

وهنا وقف إيفان فجأة كأنما انقطع تيار خياله
الجامح وقال :

أندرين يا ماشا ؟ ! إني سأغترب

ثم صمت لحظة تخيل فيها نفسه يتنعم بلذة الهجرة
فى أواخر الخريف وهو يتنقل كالطائر من بلد إلى
بلد زائراً فرنسا فى إيطاليا فالهند ؛ وإنها لرحلة ممتعة
شائقة ما فى ذلك ريب

— وأنا أيضاً سأغترب يا إيفان « قالت امرأته
بنبرة جازمة ثم استطردت :

أما حان أن ننظر رقم السهم ؟

— دقيقة واحدة إذا تفضلت ، أرجو أن نتطرى

هذا حتى يكون قد آن أوان التزهر فى هدأة المساء
الرائق ، أو التسلى بلعب الورق مع الصحب والجيران
كان إيفان يسبح من خياله الرحب فى بحر
الحي عند ما قالت له امرأته وقد كانت فى غمرة
الأحلام مثله :

— أجل إننا لنحسن صنعا بشراء عقار يا إيفان.
قالت هذا وصمتت وعيناها عالقتان بالهدف البعيد
فما يشك رائيتها ساعتئذ فى أن الأحلام تسكرها
هى الأخرى
وكأنما لم يسمع إيفان ما قالت فما التفث إليها لأنه
كان لم يزل يتخيل.

وإنه ليرى نفسه فى الخريف ، والخريف فصل
حبيب إلى فؤاده ، فهذه السماء صرودة الأفق مكفهرة
الأديم ، وهذه الأمسيات كالحلة بأسرة ، والتزهر فى
هذه الفترة من الزمن متعة . فما هو ذا يخرج إلى
الحديقة وقد عبثت بأزهارها أيدى الرياح الهوج ؛
وما هى ذى أوراقها الصفراء مبعثرة ها هنا وها هنا
كأنها الضحايا أو أشلاء الشهداء فى معترك الشرف
فما يتمنى قليلا حتى تنفحه السمات ؛ وما إن تسرى
البرودة فى عروقه وتتمشى فى مفاصله حتى يهرع
عائداً إلى منزله فيتناول كأساً من (الفودكا) يدق
بها أحشائه ويملأ لقمته أو لقمتين من الخيار
الكبوس مع الشمرة أو الفطر الأحمر ثم يجرع
كأساً أخرى . . .

وهنا يمدو ولداه عاشرين من البستان ومعهما قليل
من اللفت والجزر تنث منه رائحة الأرض الرطبة

ويستلقى بعدئذ على الأريكة وبطالع على مهل
جريدة مصورة ، حتى إذا خدرت أعصاب عينيه

السنين ، وتفوح منها - فوق هذه العيوب - رائحة المطبخ الذى قلما تفارقه ؛ فى حين أنه هو ما يزال فى إبان الصبا وشرخ الشباب أليق ما يكون بالزواج ثانية من خير فتاة

وقال إيثنان فى نفسه : إن هذا لن سفساف القول ولا طائل لى فيه ؛ وإن هذه حقيقة لا أجحدها ولا أنكرها ، ولكن لماذا تريد هذه الملعونة أن تغترب ؟ وماذا تفهم من السياحة والأسفار من تكون (نابل) و (كلين) لديها سواء ؟ !

إنى لأشعر منذ الآن أنه لن يكون لها من عمل إلا مضايقتى وإرهاقى ، وإنى سأكون تحت حكمها لا أعصى لها أمراً . وإنى عدا ذلك ، أدرى الناس بها فى كيفية الاحتفاظ بالدرهم والحرص عليها ؛ فعلى ستضعها - شأن أكثر النساء - فى صناديق من حديد وراء عشرات الأقفال المحكمة ، وستخبئها عني وتحصى على الفلوس الواحد ، فى حين أنها ستكون سمحة الكف جواردة مع أهلها وذوى قرباها

وهنا تذكر إيثنان أهل زوجته وأنسابها ، وكيف أنهم سيفقدون إلى دارها متى علموا بالزيج يستجدونها فى إلحاح التسولين وهم يتسمون بعدوبة ورقة ؛ والله أعلم أى لؤم تخفى تلك البسمات ، وأى رياء ؟ ! ...

يا لهم من ذرية سافلة دنيئة ، ومن نسل لا خير فيه ، إذا أعطوا ألحفو فى طلب المزيد ، وإن ردوا نشطت ألسنتهم تغتاب وتقذح ما شاء لها الاغتيال والقذح ، وتغنوا لراهم كل أذية وبلاء ، وتمثل له أهله ، فإذا به يراهم صفيق الوجوه فى

وراح يتهادى فى الغرفة مفكراً ، وقد سبهم وجهه وقطب أساريه ، ويتساءل عما إذا كانت امرأته تمنى حقاً ما تقول وأنها ستغترب معه !

فخير له وأجدى عليه أن يسافر بمفرده من دونها ، أو برفقة غايات رعناوات إن لم يكن للرفقة من بد ، غايات خفيفات لاهم عندهن ولا غم ولا يمشن إلا للساعة التى هن فيها ؛ أما السفر مع امرأة لا تفكر طول الطريق إلا فى أولادها ولا تتكلم إلا عنهم متأوهة تارة متدلة أخرى ، تحاسبه على كل بارة ، فهذا ما بكرهه ويحتويه

وتمثلت له زوجته فى عربة القطار المكتظة بالزرم واللال والطرود تتأوه ولا يدري أحد لماذا ، وتشكو الصداغ لداع ولغير داع ، وتتذمر من كثرة النفقات ، وتبهر من غلاء الحاجات ، وترغمه فى المحطات أن يهرع ليشتاها «سندوتشاً» وليأتها بالناء ، لأن حضرتها لا تريد أن تتناول غداءها فى المطعم ليهظ الأسعار ، وهذا ما لا يرغب فيه . إذن خير لها وله أن تبقى فى منزلها لا تبرحه وإن تطلق له حريته ، فالسياحة لم يخلق لها الشحيح الضنين ، وما عسى يستطيع البخيل أن يرى من متع يا ترى ؟ ؟

ثم إنها عدا ذلك كله ستلازم غرفتها فى الفندق الذى سينزلان فيه

وستحتفظ به حياها لا يفارقها وهذا ما لا طاقة له به ولا قدرة له على احتماله

والتقى على امرأته نظرة فاحصة عجلى ، فإذا به يراها لأول مرة فى حياته ، قبيحة المنظر ، دميمة الوجه ؛ قد دهنتها بوادى الكبر ، وظهر عليها أثر

فاحتدم غيظه واشتد حنقه ؛ وسرعان ما فتح الصحيفة وألقى على الصفحة الرابعة منها نظرة خاطفة وأعان لها ، جبا في مناوأتها فقط ، بصوت الفأثر الفخور :

— « السباق ٩٤٩٩ والرقم ٤٦ لا ٢٦ » وصمت على مضض

لقد شاء أن يثير حفيظتها ، وأن يحنقها فتم له ما أراد ، إلا أنه تأثر هو كذلك واستاء . فالأحلام الذهبية تلاشت واضمحلت ، وهوت قصور الأمانى إلى الحضيض هويًا ، فتمثل المنزل لها حالكا قائماً حقيراً ، وظهر لها أن العشاء الذى فرغاً من تناوله منذ حين لم يكن لذيذاً شهيماً ، ولقد شمراً معاً بوطأته على معدتيهما

وترأت لها هذه الأمسية طويلة ما تنتهى ، ومملة غاية الملل :

فيا للأجواء المربدة القائمة وإن لم يكن بها اربداد ولا قتام :

ومشى إيثاق مهتاج الأعصاب تأثر النفس وتخطى الردهة بخطى المسرع العجلان وصوته الحائق يحلجل في أرجائها ، فتجاوب منه الأصدا : — ما هذا ؟ لا أدري ما أدعوه وربى ؛ فأينما أمش لا أرى إلا قصاصات الأوراق ، وأتعث بالأشياء المبعثرة هنا وهناك ، وفي كل زاوية بل في كل موضع لاتقع العين إلا على فتات الخبز وقشور البيض ، أمريلة هذا أم منزل ؟؟

يجب أن أنأى عن هذا الجو الموبوء ، وأن أهجر هذا المحيط الملعون ، سأذهب ، وليحملنى الشيطان ، فأشقى نفسى على أول شجرة أقع عليها في سبيل نرجمة هورج ملستى

حين أنه كان — لساعة خلت — يرى تلك الوجوه ذاتها تفيض بالوداعة ، وتتألق بالحياء والبشر فتمتم : « يا للحشرات ! »

لقد بدت له وجوه أحب الناس لديه وأدناهم إليه بغيضة مكروهة ، وغلى صدره بالحنق عليهم جميعاً ، وتمنى على الله في سره لو لم يوجدوا

وتدنى سروره ، فلقد شابه الكدر ، وعمرت جسمه رعشة استمزاز من أولئك الأهل المرائين المتسترين تحت ألف تقاب ، ومن تلك الزوجة المقترة حتى على نفسها التى لا تدرك لعمال لذة إلا بكثرة في صناديق من حديد وراء ألف قفل

وتوارت البسمة التى كانت تملو عياه منذ حين فكأحت منه الأسارير وأصبح لا ينظر إلى زوجته إلا شراً . وهى ، هى كذلك انتابها منه ما انتابه منها ، فبدا لها بغيضاً ممقوتاً وهو الذى كان بالأمس مطمئح آمالها ومحط أمانها ، فراحت ترمقه بكثير من الحقد ؛ فإن لهاهى كما له أحلام مذهبة الحواشي ، ولها آراء تعجب بها هي على الأقل إن لم يعجب بها سواها ، ولها خطوط ومشروعات كلها رائحة جميلة ، ولم لا ؟ أليكون زوجها المأفون هذا خيراً منها ؟ لا وألف لا ؛ وإنها لتعلم العلم اليقين فيماذا يفكر زوجها ، وماذا يتراءى له ، وإنها أدري الناس به وأخبرهم بطباعه . إنه سيكون أول من يمد رجله على ظهرها وأول من يتبسط على حسابها هي ، ولقد كانت بنظراتها — التى تعنى أنه من الجميل أن يحلم المرء على كيس سواه — تنطق بماعى لسانها عن بيانه . ولقد فهم الزوج معنى تلك النظرات الشرراء وأدرك ما يجول بخاطرهما عنه ، وقرأ في تلك الملامح المغضنة ما أبدته ضغائن القلب الحقود ،